# الأخلاق كما عبّر عنها أبو العلاء المعرّي شعرًا

اعداد الدكتور/ عبد الجواد أحمد محمد

الوعاء الفني للأخلاق ، كان الحكمة والمثل والنصيحة والخطب لما لهذه الفنون من صفات الأداء المباشر المتناسب مع الحث على الأخلاق الفاضلة والتنفير من الرذائل ؛ ويعد القرآن الكريم المصدر الأساسى الذى نهل منه العلماء والأدباء ، حيث مدح الله تعالى رسوله محمدا ﷺ بحسن الخلق فقال سبحانه : « وإنك لعلى خلق عظيم »(١) كما حث الله عزوجل المسلمين على الاقتداء بصاحب الخلق العظيم بقوله تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا »(٢) وقد أشاد الرسول الأكرم والنبى الأعظم — صلوات الله وسلامه عليه — بدور الأخلاق فى اصلاح المجتمعات قاطبة ، ونبه الناس الى الهدف الرئيسى الذى بعث لاتمامه وكماله بقوله عليه السلام . « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »(٣) وقد جاء بعض الحكم الأخلاقية فى الشعر العربى ختاما لبعض القصائد أو مبثوثة فى ثنايا النظم ، من مثل قول البحترى .

---

(١) آية ٤ من سورة القلم .

(٢) آية ٢١ من سورة الأحزاب .

(٣) مسند الامام أحمد بن حنبل ٢/٣٨١ .

اذا تشاكلت الأخلاق واقتربت
دنت مسافة بين العجم والعرب(٤)

وقول أمير الشعراء أحمد شوقى :
وانما الأمم الأخلاق ما بقيت
فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا(٥)

ومن ذلك قول صردر يمدح أخاه :

شمائل وبهجة مرموقة والحسن بالأخلاق ثم بالخلق(٧)

فالحسن عنده بالأخلاق قبل أن يكون بالصورة ، فاذا تم للانسان جمال الأخلاق ، كان الجمال الشكل زيادة فى المحاسن ، غير أن هذا الجمال لا يغنى غناء حسن الخلق .

ويزيد صفى الدين الحلى(٨) على ما تقدم ، أن المرء اذا لم يقم منزلته الأدبية فى المجتمع على مكارم الأخلاق ، كان بناؤه واهى الأساس . فيقول :

اذا عدم الفتى خلقا جميلا يسود به فلا خلق الجمال(٩)

---

(٤) ديوان البحترى ص ٤٢٦ .
(٥) الشوقيات ٣/٣٦ ط دار الكتاب العربى بيروت ط المكتب الاسلامى .
(٦) صردر شاعر عباسى توفى سنة ٤٦٥هـ .
(٩) ديوان الحلى ص ٢١٦ .
(٨) صفى الحلى توفى سنة ٧٥٠هـ .
(٧) ديوان صردر ص ١١٣ ، الخلق : جمع خلقة وهى الشكل والتركيب .

ويلاحظ مهيار الديلمى(١٠) أن الناس كثيرا ما يجعلون المقياس الاجتماعى المال والثروة ، فيجلون الغنى ويرذلون الفقير ، راكبين بذلك متن الشطط ، وانما يكون الفقر والغنى بالأخلاق والمكانة الأدبية لا بالمال ، فالأبى الشريف هو الغنى ولو كان قليل المال ، والساقط الذليل هو الفقير ولو كان ضخم الثروة ، يقول مهيار فى مدح آل عبد الله القنانى :

كرام لا يرون العسر فقرا وفى العرض الغنى والافتقار(١١)

ويلمح أبو العتاهية(١٢) الى الأهمية التى يعيرها العرب للنسب والمكانة التى يجعلونها للأخلاق فى صون الشرف التليد وانمائه ، فيقول(١٣) :

هى الأعراق بالأخلاق تنمو بقدر أصولها تزكو الفروع

ولكن كل ذلك لا يعنينا لأن البحث يركز على الأخلاق التى اشتمل عليها شعر المعرى(١٤) فانه يفضل الأخلاق على انتاج ، ويحث على التربية والتهذيب فجدير بنا أن نقول معه :

أسر ان كنت محمودا على خلق ولا أسر بأنى المجد محمود

---

(١٠) مهيار الريلمى شاعر عباس توفى سنة ٤٢٨هـ .

(١١) ديوان مهيار الديلمى ٢/٨ .

(١٢) أبو العتاهية توفى سنة ٢١٠هـ .

(١٣) ديوان أبو العتاهية ص ١٥٤ .

(١٤) هو أبو العلاء أحمد بن عبدالله القضير توفى سنة ٤٤٩هـ . والبيتان فى اللزوميات ١/٣٢٩ ط بيروت ـ دار صادر .

ما يصنع الرأس بالتيجان يعقدها  وانمـا هو بعـد الموت جلمود

ان التاج الذى زانه فى الدنيا واكتسب به المهابه والأبهة لن يمده بشىء من ذلك بعد الموت : لأنه سيصبح صخرة لا نفى ولا تحسـن بشىء فالأفضل عنده فى الدنيا أن يكون صاحب خلق يحمده الناس عليه لا ملكا يطلق عليه اسم محمود ، فهـذا لفظ شكلى يميزه عن غيره من البشر بالرسم والهيئة الخارجية دون أن ينم عما يحتويه صاحبه من خلق ، ونحن سنتجاوز عما فى الشطر الثانى من البيت الثانى من شطط أبعد صاحبه عن عقيدة الاسلام ، لأننا لا نحاكمه عقديا بقدر ما نبحث عن نظرية الأخلاق عنده •

## العوامل المؤثرة فى الأخلاق :

يقسم علماء الاجتماع الأخلاق بملاحظة العوامل المؤثرة فيهـا قسـمين :

١ ــ الأخلاق الفطرية •

٢ ــ الأخلاق المكتسبة •

ونؤثر ــ هنا ــ تتبع هـذا التقسيم على أن نردف كلا منهمـا بالعوامل التى تؤثر فى تكوينه •

### ( أ ) الأخلاق الفطرية :

ويعنون بها النزعات الخلقية الموجودة أصلا فى جبلة الانسـان بعامل طبعى لا يد للانسان فى تحويلها عن وضعها •

وهذه الميول الفطرية انما تحصل فى اعتقادهم بفعل مؤثرات متعددة أهمها :

١ ــ العناصر التى يتألف منها الجسم .

٢ ــ النجم المتسلط عند مسقط النطفة فى الرحم .

٣ ــ الوراثة .

٤ ــ القضاء والقدر .

وسنتتبع هذه المؤثرات بايجاز ــ فى شعر أبى العلاء المعرى :

( أ ) تأثير عناصر الجسم : هو التفسير « البيولوجى » للأخلاق، يذهب أصحابه الى أن النسبة القائمة بين الأجزاء التى يتركب منها الجسم ، وقد أكثر العرب من الكلام فى هذا الموضوع وتفننوا فى شرحه واجتهدوا فى تحليله وتعليله . نذكر منهم بصورة خاصة « اخوان الصفا »(١٦) .

أما الشعراء فقلماء تعرضوا له ، استثنى منهم أبا العلاء المعرى ، ولعل السبب فى ذلك يرجع الى أنه أقربهم الى النهج الفلسفى ، وأميلهم الى تقصى الأسباب وتعليل الظواهر .

وكلام أبى العلاء فى هذا الموضوع لا يخلو من ابهام فهو يشير الى هذا العامل بألفاظ شتى فيسميه « الغرائز الأربع »(١٧)

---

(١٦) رسائل اخوان الصفا ١/٢٢٩ ــ ٢٣٠ ط القاهرة ١٩٢٨م .

(١٧) اللزوميات ١/٤٢ .

و « الطبـائع الأربع »(١٨) وأحيـانا « الأربـع »(١٩) بلا تعيين ، وهذه الأربع :

١ ــ الأركان الأربعة التى هى : التراب والمـاء والهواء والنار .

٢ ــ الطبـائع الأربـع التى هى الحـرارة والبرودة والرطوبة واليبوسه .

٣ ــ الأخلاط الأربعة التى هى الدم والبلغم والصفراء والسوداء

ولا عبرة بتذكير العـدد أو تأنيثـه ، لأن المعرى قد يشـير الى العناصر الأربعة أو الأركان الأربعة بعدد مذكر كما فى قوله :

نرد الى الأصول وكل حى  له فى الأربع القدم انتساب(٢٠)

و « الأربع القدم » لا يمكن أن يعنى بها غير العنـاصر الأربعة اذ منها تتكون الأحيـاء واليهـا تنحل ، وأما الأخلاط الأربعـة فكثيرا ما يسميها المعرى «بالغرائز الأربع» واذن فتصبح الاشارة اليها بالعدد المذكر ، والذى يزيد الأمر تشويشا أن شراح اللزوميات كثيرا ماشرحوا الغرائز بالطبـائع فجعلوهمـا بمعنى الأخلاط خـلافا التعـريف

---

(١٨) المرجع السابق ١/١٥٦ .

(١٩) المرجع السابق ١/٧١ .

(٢٠) اللزوميات ١/١٠١ ، الأصول : أى الاصول الأربعة ، وهى الماء والهواء والتراب والنار ، ومنها تتألف الطبائع الأربع فى الانسـان ، وقوله : القدم : أراد انها أزلية بأزلية المادة .

(٢١) الأخلاط فى لسان العرب : المزجة للانسان الأربعة ، م ٢ مادة خلط .

القاموسى(٢١) . ولعل خير ما نخرج به من هذا الاضطراب أن نعد العامل البيولوجي متأثرا بجميع هذه المذكورات ولا سيما الطبائع والأخلاط ومن شواهد أبى العلاء على ما تقدم قوله :

ان الطبائع لما ألفت جلبت شرا ، تولد فيه القيل والقال

حتى اذا مالك الأشياء فرقها زال العناء،ولم يتعبك تنقال(٢٢)

ولا يخفى أن المعرى يعتقد أن الانسان فاسد الطبع ولذلك ينسب فساد الأخلاق الى الجبلة الأصلية أو الى الطبائع التى تكون الأخلاق وقوله أيضا :

تألفت أربع فينا فتذكى بها منا ضغائن واحتراب(٢٣)

فسبب التنافر بين الناس انما هو تباين أخلاطهم ، وهذا التباين حاصل بفعل الأربع التى هى الطبائع أو الغرائز أو الأخلاط وربما كانت العناصر ، وتفاعل هذه الأخلاط هو الذى يسم والأخلاق بسمتها الخاصة ، وله فى ذلك قوله :

غرائز لما ألفت جمعت ردى وهل يجد الخلم الذى يحفظ الخلما(٢٤)

وقد تتجاوز هذه الغرائز التأثير فى الأخلاق الى الفعل فى الأجسام كما يظهر فى قوله :

---

(٢٢) اللزوميات ٢/٢٦٧ .

(٢٣) المرجع السابق ١/١٠٠ .

(٢٤) اللزوميات للمعدى ٢/٤١٨ ، والخليم بالكسر : الصديق المختار .

وأرى الأربع الغـرائز فينـا وهى فىّ جثة الفتى خصماء

ان توافقن صح أولا فما ينفســـك عنها الامراض والاعماء(٢٥)

والقاموس يفسر المرض باظلام الطبيعة واضطرابها بعد صفائها واعتـدالها(٢٦) .

وربما صح أن تكون اشارة المعرى مزدوجة تتناول التغير فى حالة الجسم والمزاج معا .

**(ب) تأثير الوراثة :**

والوراثة لا تخرج عن كونها مظهرا من مظاهر العامل«البيولوجى» بمعنى أن الوسيلة التى تنتقل بهـا الفطرة من السلف الى الخلف هى التشابه فى التركيب الجســمى ، غير أن العرب أعاروا هـذه الظاهرة أهمية حاصة ، وأكثروا فيها القول ، وربما ذهبوا أحيانا الى أنها العامل الأهم بل الوحيد فى تكون الأخلاق ولعل الداعى الى ذلك رغبتهم فى المدح والفخر ، واهتمامهم بالعصبية والنسب ، كما يبدو أنهم أرادوا بذلك تأصيل الصفات الحميدة لا سيما الكرم والشجاعة ، بجعلها غير طارئة فىّ الشخص الممدوح ، بحيث تصـبح عندهم طبعـا وجبلة . يقول المعرى :

وان الفتى فيما أرى بزمانه لأشبه منه شيمة بأبيه(٢٧)

---

(٢٥) المرجع السابق ١/٢٥٨ .

(٢٦) لسان العرب م ٥ مادة « مرض » .

(٢٧) اللزوميات ٢/٢٦٧ .

## ( ج ) تأثير النجـــوم :

لحكماء العرب فى هذا العامل رأى هام مجمله : أن الأخلاق لدى الجنين تتأثر بالبروج المتسـلطة فى حين مسـقط النطفـة فى الرحم ، وباختلاف هذه البروج المتسلطة تتنوع المؤثرات ، ولاخوان الصفا فى رسائلهم أقوال كثيرة فى هذه الناحية وأما الشـواهد الشـعرية فأكثر مانراه منها عند أبى العلاء ، حيث يقول :

لقد ترفع فوق المشترى زحل  فأصبح الشر فينا ظاهر الغلب(٢٨)

فهو يعزو طغيان الشر على الخير فى الطبع البشرى الى ارتفاع زحل على المشـترى ، ولا يخفى أن العـرب كانوا يتشـاءمون بزحل ويتفاءلون بالمشترى • ونحن لن نتعرض لصدق هذه النظرية أو كذبهـا علميا بحسبنا أنهم كانوا يتيقنون منه بدليل صـدور القول منهم فيه بجسم • وقد يكون المعرى ـ هنا ـ ساخرا الا أن هذا السخر يمثل ما ذهب اليه بعض الناس فى عصره ، وله بهذا المعنى :

والناس من أربع حتى اذا ائتلفت
ردت الى سبعة فى الادم تختلف(٢٩)

فالناس يتشـابهون بحكم العنـاصر المتشابهة التى تتألف منهـا

---

(٢٨) اللزوميات ١/١٥٣ ، المشترى : كوكب سعد ، وزحل : كوكب نحس فى اعتقاد العرب •

(٢٩) المرجع السابق ٢/٨٩ •

أجسامهم ، لكن أخلاقهم تختلف بفعل النجوم ، والسبعة هي النجوم السيارة المعروفة لعهدهم(٣٠) .

والسوائر ليست وحدها التي تؤثر في الأخلاق ، بل هناك البروج التي تتألف من الثوابت — أيضا — وقد جمع المعري تأثير العناصر والسوائر والبروج في بيت واحد فقال :

أرى أربعا آزرت سبعة وتلك نوازل في اثني عشر(٣١)

فالأربع هي العناصر أو الطبائع أو الأخلاط ، والسبعة هي السوائر ، والاثنا عشر هي البروج ، ويرى المعري أن الفطرة بالواقع هي نتيجة تفاعل هذه المؤثرات .

**( د ) تأثير القضاء والقدر :**

ربما صح أن نعزو جميع المؤثرات التي ذكرناها الى القضاء والقدر لأننا نقع في حكم العرب الشعرية على شواهد معزوة الى القضاء والقدر بصورة مطلقة وأقرب ما استطعت أن أفسر به القضاء والقدر في مثل هذه الشواهد .

والقدر في مثل هذه الشواهد ارادة الله مجردة عن أي عامل مساعد منزهة عن أية وسيلة موصلة .

من هذه الشواهد قول المعري :

حوتنا شرور لا صلاح لمثلها فان شذ منا صالح فهو نادر

---

(٣٠) رسائل اخوان الصفا ١/٧٣ .

(٣١) اللزوميات ١/٦١٤ .

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سببته المقادر(٣٢)

فهو لا يكاد يرى رشدا فى أعمال الانسان ، لذلك يذهب الى أن فساد طبعه بقضاء الله وهو بذلك يعترض على القدر الذى يلزمه بالفعل المنحرف ثم يحاسبه عليه ، ولذا فانه يرى فى هذا الملك ظلما بينا وقد ذهب غلاة هذا المذهب الى أن القضاء والقدر هو العامل الوحيد فى تكوين الأخلاق ، فلا مركوز ولا مكتسب بوانما هى ارادة الله أن تكون الأخلاق على ما يريد فاذا تعارض عامل من العوامل السابقة مع القضاء والقدر ، فان القدر هو الغالب وارادة الله هى الفيصل .

**الأخلاق المكتسبة :**

نتناول — هنا — العوامل المؤثرة فى تكوين الأخلاق من اجتماعية وتربوية ، ولا يقول بتعذر الاكتساب الا الغلاة من القائلين بالقدر والمعتقدين بالتواكل على نحو يخالف تعاليم الاسلام ، وأبو العلاء المعرى على الرغم من أنه من غلاة الجبرية ، نراه يفسح مجالا حتى فى لزومياته للتأثير الاجتماعى فى الأخلاق ويحث على حسن التربية للناشىء ووجوب القسوة فى تهذيبه ، اذ يقول :

وان الفتى فيما أرى ، بزمانه لأشبه منه شيمة بأبيه(٣٣)

فهو يرى أن الناشىء أشد تأثرا بنزعات من يتصل بهم خاصة ما كان عليه أبوه ، وبذلك يقدم العامل الوراثى على العامل الطبيعى والاجتماعى ، وهو اقرار ضمنى بتأثير الوراثة فى تكون الأخلاق وتطورها .

---

(٣٢) اللزوميات ١/٤٢١ .

(٣٣) المرجع السابق ٢/٦٢٧ .

وطرق الاكتساب متعددة ، منها : التأديب ، ونظرا لمكانة الأخلاق عند العرب فانهم يشـــددون على عامل التربية ويحثون على وجـــوب التأديب بكل وسيلة ممكنة ويجعلون الضرب ، احدى الوسائل الناجعة فى تأدب الصغار « الناشئة » وتقويمهم ، يقول المعرى :

فاضرب وليدك وادلله على رشد ولا تقل هو طفل غير محتلم

ورب شـــق برأس جـــر منفعـــة
وقس على نفع شق الرأس فى القلم(٣٤)

وربما كان من الغريب أن يصدر هـــذا القول عن المعرى ، وهو الرجل الذى اشتهر برقة القلب وعطفه حتى على الحيوان ، ولكن الظاهر أنه يقسو على الناشئة حبا فيهم ، فهو يخشى أن تأخذ الرحمـــة قلوب ذويهم فيتساهلون معهم فيما يعقب شرا والشفقة كثيرا ما تكون ســـببا للبلاء ولا سيما فى تربية الناشئة ، اذ ينشأون على العصـــيان والتمرد وينتهى بهم الأمر الى العقوق ، والشدة فى تربية الصـــغار مشـــكورة عموما والضرب قد يكون مفيـــدا فى حالات خاصـــة الا أننا لا نوافق أبا العلاء على المعنى فيه حتى شج الرأس وذلك ليس خوفا على الرأس فحسب بل لأن الضرب الكثير يذل النـــاشىء وهو بعـــد اذا تكرر خسر تأثيره كعامل تربوى ، ومما لا شك فيه أن زمان التـــأديب بالضرب فى الصغر أجدى وأقوم للصغير وأكثر فائدة له من أى وقت آخر .

**دعائم هامة فى الأخلاق :**

أتناول — فى هذه الجزئية — بعض العمـــد الأســـاسية فى مجال الحديث عن الأخلاق عند أبى العـــلاء ، مثل : الخير والشر ، والعدل والظلم ، والحق والباطل .

---

(٣٤) اللزوميات ٢/٤٥٤ .

**أولا ــ الخير :**

معنـــاه : جاء فى القـــاموس أن الخـــير « وجدان الشىء كمالاته اللائقة • وهو ضد الشر •• والخير المطلق : هو أن يكون مرغوبا لكل واحد كالجنة ، والمقيد هو أن يكون خيرا لواحد وشرا لآخر كالمال»(٣٥)

ويقول « مسكويه » : ان الخير ما تتجه الفضائل لتحقيقه ، ويشير الى أن الخير يأتى بمعنيين ، أحدهما : الخير المطلق ، وهو الذى يكون لجميع الناس فى جميع الأزمنة والأمكنة والآخر : الخير المحدود ، وهو الخير النسبى الذى يكون لبعض الناس فى بعض الأزمنة (٣٦) •

وقد أشار أبو العلاء الى الخير المطلق بقوله :

الجسم كالصفر يكسوه الثرى صدأ
والخـــير كالتبر لا يدنو له الدنس

لو دام فى الأرض عمر الدهرمختزنا
لـــا تغـــير عمـــا يعهـــــد الأنس (٣٧)

فالخير المشار اليه ثابت لا يتغير مدلوله بتغير الحوادث واختلاف الأفراد • ويصح أن يكون الجســـم ــ فى البيت ــ بمعنـــاه المعروف ليقابل الخير بمعنى الروح ، كما لا يمتنع أن يكون الجسم بمعنى الشر المقابل الخير بمعناه المطلق •

---

(٣٥) لسان العرب ٢/١١٢٨ ــ ١٢٣٠ ، مختار الصحاح ص١٩٤ •

(٣٦) تهذيب الأخـــلاق تحقيق د/ قســـطنطين زريق ص ١٢ ط بـــيروت ١٩٦٦م •

(٣٧) اللزوميات ٢/٢٤ ، الصفر ، النحاس •

وتجدر الاشارة ــ هنا ــ الى أنه لم يتوسع أحد من شعراء العرب ــ فيما قرأت ــ فى معالجة الخير والشر كما توسع شاعر المعرة، مما جعل بحثي هذا يعتمد على نفثاته الشعرية ، التى تنم عن مكانة الخير وتبرز قيمته الذاتية السامية ، وأنه فضيلة واجبة ينبغى التمسك بها ، حيث يقول :

وان سبيل الخير للمرء واضح  الى يوم يقضى ثم تنقطع السبل(٣٨)

وقد لا ينكر الانسان قيمة الخير ولا ينكر وجوب لزومه ، ولكنه مع ذلك يتقاعس عن العمل به كسلا أو عجزا ، ينبه أبو العلاء الى ذلك بقوله :

والخير محبوب ولكنه  يعجز عنه الحى أو يكسل(٣٩)

فالشاعر الفيلسوف يوضح ــ هنا ــ أن معرفة الخير وحدها لا تكفى لأنه مجرد المعالم ويوجب ارتدافها بالعمل الذى تقتضيه ، ولذلك كان فعل الخير عنده خير الأفعال ، وقد أبان عن ذلك فى قوله:

ولن نلقى كفعل الخير فعلا  ولا مثل المثوبة ربح تجر(٤٠)

**الحث على الخير :**

لما كان للخير هذه المنزلة العالية عند العرب فقد حث شعراؤهم

---

(٣٨) المرجع السابق ٢/٥٧ .
(٣٩) ارجع السابق ٢/٢٨١ .
(٤٠) اللزوميات ١/٥٥٤ .

الأخلاقيون على لزومه وتوجيه الحياة بمقتضى فضائله ، فقال أبو العلاء :

لا تسدين قبيحا ان هممت به  وافعل جميلا فان الخير يغتنم(٤١)

فهو يزجر عن القبيح ويحث على العمل الفاضل ويعد عمل الخير مغنما قد لا تسهل اليه السبل دائما ، وقال أيضا :

فاتق الله وحده  وتحمل له التكلف

وافعل الخير فالحديـ  ـث كثير قد اختلف(٤٢)

وأبو العلاء — هنا — يزجر عن الاصغاء الى المنافقين من دعاة التقوى ويحث على العمل الفاضل ، وذلك لأن عمل الخير أدل على التقوى من مظاهر التعبد .

ويستطرد الفيلسوف الشاعر فى الحث على المسارعة فى مجال عمل الخير فيقول ،

يأتى الردى ويوارى الثلب جسدا  فافعل جميلا وجانب كل ثلاب(٤٣)

فالحياة على قصرها تسنح فيها السوانح لعمل الخير ، فعلى المرء أن ينتهزها ويأتى ما يستطيع من الخير قبل موافاة الأجل ، ويقول أيضا : فى المعنى السابق :

فاتق الله وافعل الخير فالمو  ت حسام يفرى البرية قاصل(٤٤)

---

(٤١) المرجع السابق ٢/٣٩٤ .
(٤٢) المرجع السابق ٢/١٧٣ .
(٤٣) المرجع السابق ١/١٥٥ ، ثلاث : عباب .
(٤٤) المرجع السابق ٢/٣٧٣ .

فالمرء — فى رأى المعرى — يجب ألا يكتفى بانتهاز الفرص لعمل الخير ، بل عليه أن يبذل جهده فى ايجاد هذه الفرص ، وخلق المناسبات التى تستدعيها ، يشير الى ذلك بقوله :

لا يتركن قليل الخير يفعله ... من نال فى الأرض تأييدا وتمكينا
فالطبع يكسر بيتا أو يقومه ... بأهون السعى تحريكا وتسكينا(٤٥)

انه يطلب من الذين نالوا المناصب ومكنوا لأنفسهم فى الحياة يطلب منهم ألا يقلعوا عن فعل الخير ولو بالقليل منه لأنهم عرضة للتحطيم بهفوة صغيرة يجرهم اليها الطبع السيء ، فعليهم أن يداروا ضعفهم وتقصيرهم بفعل الخيرات .

ولما كان المعرى يعتقد أنه ما من أحد الا وهو يستطيع أن يأتى خيرا ما ان لم يكن ايجابيا فسلبيا ، فلفت الأنظار الى ذلك بقوله :

وان عجزت عن الخيرات تفعلها ... فلا يكن دون ترك الشر اعجاز(٤٦)

فتجنب الشر والامساك عنه ضرب من عمل الخير ، ومن كان عاجزا عن اتيان الخير الايجابى ، فلا يمكن أن يعجز عن الخير السلبى — أى ترك الشر وبناء على ذلك فالمعرى يقتضى كل انسان أن يأتى من الخير بحسب طاقته ، ويقرر أن كل انسان يستطيع — اذا قصد — أن يفعل خيرا ما .

ويحث أبو العلاء على التعاون على البر والمعروف فيقول :

أنجد أخاك على خير يهم به ... فالمؤمنون لدى الخيرات انجاد(٤٧)

---

(٤٥) اللزوميات ٢/٥١٧ .
(٤٦) المرجع السابق ١/٦٢٢ .
(٤٧) المرجع السابق ١/٣٣٣ .

فاذا تعذر على المرء فعل الخير مستقلا فعليه أن يساعد فى تحقيقه على الأقل .

ويدعو الناس الى عمل الخير غير نادمين أو زاهدين ، فيقول :

الخير لا يكفر فليحسن المس لم والصابىء والهائد(٤٨)

انها دعوة للخلق على اختلاف مللهم ونحلهم أن يعملوا الخيرات لأنهم لن يكفروها عند الله وان كان المسلم يتفرد دون سائر الناس بأجرى الدنيا والآخرة ، ويتناول هذا المعنى ببراعة فيقول :

ان اناء الخير من عسجد لو خر هضب فوقه ما انثلم(٤٩)

فقد شبه الخير باناء من ذهب لا يتحطم كما يتحطم اناء الخزف فالذهب خلافا لسائر المعادن ، محفوظ القيمة ، مهما طرأ عليه — فلو دفن فى التراب قرونا لما أثرت فيه عوامل الطبيعة بما يفسد جوهره او يحط من قيمته كذلك الخير عند المعرى ، فانه جوهر صاف لا يكدره عامل من العوامل ، ولذا فاتيانه مغنم ثابت كما سبق فى قوله :

وافعل جميلا فان الخير ، يغتنم(٥٠)

وحكم المعرى هذا ليس صادرا عن حسن ظن بالناس ، فقد عرف الرجل بسوء ظنه بهم ، وكثيرا ما اتهمهم بالغدر والخيانة ، ونصح بمقاطعتهم واعتزالهم ، فنبع هذه الدعوة الى الخير عنده أساسه النظرة الموضوعية للخير ، وهو — أيضا — اذا انتشر أراحه من العناء

---

(٤٨) المرجع السابق ١/٣٤٤ .

(٤٩) اللزوميات ٢/٤٨٦ .

(٥٠) المرجع السابق ٢/٣٩٤ .

الذى لقيه من سوء معاملة الأشرار له ، وبذلك تكون النظرة قد اتسمت بالذاتية مع وجود أصلها الموضوعى .

كما يقرر المعرى أن الخير اذا ضاع عند من فاعله فلم يضع عند سائر الناس ، بل كوفىء عليه فاعله بالحمد والثناء ، ويؤكد لفاعل الخير أن عمله محفوظ الفضل مكافأ عليه لا محالة وهو اذا لم يستوف نفعه « ماديا » فانه يكافأ عليه بالذكر الحسن ، يقول المعرى مشيرا الى ذلك :

عليك بفعل الخير لو لم يكن له  من الفضل الا حسنه فى المسامع(٥١)

لا ينكر أحد أن فاعل الخير قد يكون قليل الحظ من الناس فلا يذكرون له فضلا ولا يحفظون له منة ، ولكن اذا جحد الخلق معروفه بينهم فان الله تعالى لا يحرم فاعله من الثواب .

يقول المعرى مؤكدا هذا المعنى :

منى ما فعلت الخير ثم كفرته  فلا تأسفن ان المهيمن اجر(٥٢)

فان العمل الفاضل اذ ضاع عند الناس فهو غير ضائع عند الله — عز وجل — ومما لا شك فيه — أن اثابة الله خير وأفضل من اثابة الناس ، ولذلك فانه لا يجوز أن يكون جحود الناس عاملا على صرف المرء عن عمل الخير ، قال أبو العلاء :

من يرد صفو عيشه يبغ من دنـ  ـياه أمرا مبين الاعجاز
فافعل الخير ان جزاك الفتى عنـ  ـه والا فانه بالخير جاز(٥٣)

فهو يرى أن فعل الخير أمر واجب ، وأن الجزاء عليه غير ضائع .

---

(٥١) المرجع السابق ١٣٨/٢ .
(٥٢) اللزوميات ٤٢٢/١ .
(٥٣) المرجع السابق ٣٣٣/١ .

فاذا لم يلقه المرء من اخوانه فى الحيـاة لقيه ثواب فى الآخرة ، والى ذلك يشير بقوله :

ومتى شـاء الذى صـورنا أشـعر الميت نشـورا فنشر
فافعل الخـير وأمل غبـة فهو الذخر اذا الله حشر(٥٤)

ولنا أن نؤيد رأى أبى العلاء ، الذى يقرر فيه أن الخير ومن سلك مسلكه مكسب فى الدنيا وذخر فى الآخرة .

## الخير من أجل الخير :

قد يستفاد من النبـذة السـابقة أن المعرى ومن جرى مجراه لا يرون فعل الخير الا بفوائد تجتنى منه فى الدنيا أو فى الآخرة ، وهذا لا تؤيده أقوال المعرى الأخرى ، اذ وجدنا له أبياتا يوجب فيهـا فعل الخير لأنه خير ليس الا منها قوله :

لا تسدين قبيحا ان هممت به وافعل جميلا فان الخير يغتنم(٥٥)

ففى قوله « ان الخير يغتنم » اشارة ضمنية الى أن يفعل الخير من أجل مافيه من فضيلة مجردة ، وفى بعض خطراته حكم صريحة بأن الخير يجب أن لا يفعل على نية الكسب فحسب ، من ذلك قوله :

اذا ما فعلت الخير فاجعله خالصا لربك وازجر عن مديحك ألسنا(٥٦)

---

(٥٤) المرجع السابق ٦٠٧/١ .

(٥٥) المرجع السابق ٣١٤/٢ .

(٥٦) اللزوميات ٥١٢/٢ .

ففعل الخير يجب أن يكون خالصا لوجه الله وحده ، لا واسطة لكسب الفوائد أو احراز المجد ونيل الحمد وان كان هذا — أيضا — انتظار لمنفعة ، هى ثواب الله فى الآخرة ، ويشير فى موضع آخر الى الى أن الدافع اليه يجب ألا يكون الطمع فى حسن الجزاء من الناس : فيقول :

كن صاحب الخير تنويه وتفعله مع الأنام على أن لا يدينوكا (٥٧)

ولا الرغبة فى الثواب الأخروى :

توخى جميلا وافعليه لحسنه ولا تحكمى ان المليك به يجزى

فذاك اليه ان أراد فماكه عظيم ، والا فالحمام لنا عجز (٥٨)

بل انما يجب أن يكون عمل الخير مدفوعا بالرغبة المحضة فى الخير أخذا بقول المعرى :

فلتفعل النفس الجميل لأنه خير وأحسن ، لا لأجل ثوابها (٥٩)

فالفوائد الناجمة عن الخير — فى رأى أبى العلاء — تأتى عرضا ، ولذلك فيجب أن تكون هى وحدها الحافز على اتيان الخير وفعله .

**الشر : ضد الخير (٦٠) أو نقيض الخير (٦١) :**

وقد اتفق علماء الفكر على أن الخير حقيقة مطلقة مجردة ، أما الشر فانهم لم يتفقوا فى ما هيته . فمنهم من يقول انه موجود فى العالم

---

(٥٧) المرجع السابق ٢/٢٣٤ .
(٥٨) المرجع السابق ١/٦٢٨ .
(٥٩) المرجع السابق ١/١٧١ .
(٦٠) مختار الصحاح .
(٦١) القاموس المحيط ٢/٥٩ باب الراء صل الشين .

الخير كحقيقة مطلقة ــ أيضا ــ بينما يثبت البعض الآخر هذا الوصف للخير دون الشر ويجعلون الشر حدثا عارضا ناجما عن تعارض مصالح الأحياء، ومن القائلين بهذا الرأى جماعة من المتكلمين منهم ابن سينا وقد ذهبوا هذا المذهب فى حقيقة الشر تحرجا من أن يعدوا الله مصدرا له، لأن الله ــ عزوجل ــ مصدر كل حقيقة أزلية، وبذلك جعلوا الخير من الله والشر من الانسان وأما الشعراء فلهم فى حقيقة الشر رأيان متعارضان، أحدهما : يعد الشر طبعا فى الانسان • والآخر : يعده كسبا منه • ولعل أعمق الشعراء فى هذا الجانب أبو العلاء المعرى فلا يدع أن نحن استندنا بالأكثر الى أقواله ، فهو يرى ــ فى الكثير من أبياته ــ أن الانسان مفطور على الشر ، فالشر فى جبلته وفى طبعه ، ويبدو أن سوء ظنه المعروف بالناس هو الذى قاده الى مثل هذا الاعتقاد فنجده يقول :

واسيد الأقوام عند حجابه ... طبع يقاتله الحجى ويحارب

والشر فى الجد القديم غريزة ... فى كل نفس منه عرق ضارب (٦٢)

فالشر عنده غريزة فى جدنا الأقدم ، وتتحدر فى ذريته ، ولذلك لا يمكن أن تخلو منه نفس • ويقول :

الشر طبع ودنيا المرء قائدة ... الى دناياه ، والأهواء أهواء (٦٣)

ويبدو واضحا أن الشر طبع والطبع راسخ لا يقوى المرء على تبديله

---

(٦٢) اللزوميات ١/١٠٥ •

(٦٣) المرجع السابق ٢/٢٦٦ •

ويقول المعرى أيضا :

والشر فى طبع الأنام فان بين  شيئا سواه فليس خيم نجار (٦٤)

نلحظ ــ هنا ــ أن الشر عنده ــ طبع أصيل فى الناس وكل ما يظهر من البوادر المناقضة له انما هو سحابة صيف .. لا تلبث أن تنقشع ويظهر الطبع المركوز فى النفس .

ومن أقواله أيضا :

وطبعــك الشر فان أمكنت  توبة ليــل من ســواد فتــب

ويطلب النقلة عن ضــمهم  ناس على كل قبيــح رتب (٦٥)

وقد يظن من يطالع البيتين لأول وهلة ، أن الشاعر يعتقــد بأن تغيير الطبع أمر ميسور ولكنه لا يكاد يســتوفى الشاهد حتى يعلم أن الشاعر ساخر ، فقد قاس لزوم الشر للمرء بلزوم السواد لليــل ، وهو بيان واضح لاعتقاده بتعذر التحرر من الشر ومن أقواله أيضا :

والشر فى الخلق طبــع لا يزايله  فقس على خزر فى العين أو نجل (٦٦)

فنراه ــ هنا ــ قد جعل الشر من الانسان بمنزلة الخزر أو النجل من العين فكما أن ضيق العين وسعتها صفتان لا تنفصلان عنها ، كذلك الشر صفة لا تفارق المرء بل تلزمه صفاته الجسمية .

ونستطيع أن نستخلص من ذلك كله أن المعرى أقرب الى الاعتقاد

---

(٦٤) المرجع السابق ١/٥٧٥ .

(٦٥) المرجع السابق ١/١٨٦ ، الخيم : الطبيعة والسجية .

(٦٦) اللزوميات ٢/٣٣١ ، الخزر : ضيق العين ، والنجل : سعتها

بأن الشر أصل لا عرض الا أن رأيه ليس رأى جميع الناس ، بل انه هو نفسه لا يتشبث بهذا الرأى فى كل أقواله ــ كما سنرى بعد قليل ان شاء الله •

**الدعوة الى تجنب الشر :**

لعلنا لا نتعجب من نصح المعرى بتجنب الشر واعتزال الأشرار ، بعدما سمعناه من قبل يحكم بأن الشر طبع فى الناس لا يقوون على التخلص منه لأنه يقول :

فأوصيكم أما قبيحا فجانبوا وأما جميلا من فعال فلا تقلوا

فانى وجدت النفس تبدى ندامة على ما جنته حين يحضرها النقل(٦٧)

فهو يوصى الناس بترك القبيح مما يدل على أنه يعده من الأمور المكنة ، ولو كان طبعا لتعذر •

ويقول أيضا :

أسبل على السائل المعروف مبتدرا
تحمدوا سبل على باغى الندى سبلك

ولا تكن لسبيل الشر مبتكرا
واصرف الى الخير من نهج الهدى سبلك(٦٨)

فمن كان الشر فيه طبعا والخير كسبا ، فالأمل فى اصلاحه وتحويله ضعيف •

---

(٦٧) المرجع السابق ٢/٢٥٩ ، فلا تقلوا : لا تبغضوا •

(٦٨) اللزوميات ٢/٢٤٥ ، السبل : المطر المسيل •

ونحن لا نود أن نجزم بأن أقوال المعرى متعارضة ، فلعله يرمى من هذه الوصايا الى أن المرء مع ماهو عليه من فطرة الشر يستطيع بـ ان استعان بحول الله وقوته ـ أن يحول نفسه عن هـذه النزعه الى ما هو أقرب الى الانسانية وأدنى الى الفضيلة الخلقية .

**موقف الانسان من الشر :**

لا يسلم الانسان من غوائل الشر ، وان تفاوتت أحوال النـاس فيه ، فمن أصابه الشر الصغير خشى من تفاقمه ، ومن لم يصبه شر فقد يؤتاه توقعه ، ومن لم يتوقعه فلا يخلو من أن يسمع به فيتأذى . فالشر اذا واسع الانتشـار شـديد الوقع على النفس وفاعل الشر ، فضلا عما يصيبه من آثاره المباشرة فانه يعرض نفسه للمؤاخذة وكرامته للضياع ، والكرامة اذا ضاعت لا يعرف لردها سبيل ، يقول المعرى زاجرا عن الشر :

لا تدنون من الشرور وأهلهـا ... فتكون من أهـل العلى متباعـدا

فالمرء يقعـد بالمكارم قائمـا ... ويقوم فى طلب المعالى قاعدا (٦٩)

فاذا كان مجرد الدنو من أهـل الشر يذهب بالكرامة فما ظننـا بالانغماس فيه ؟!

ويرى فيلسوف الشعراء أن عمـل الخير يرفع المرء الى درجـة الملائكة والقعود عنه يحطه الى درك البهائم ، وتحمل أبياته التالية هذا المعنى اذ يقول :

---

(٦٩) المرجع السابق ٢/٣٥٧ .

ثلاث مراتب ، ملك رفيع وانسان ، وجيل غير انس
فان فعل الفتى خيرا تعالى الى قنس الملائك خير قنس
وان خفضته همته تهاوى الى جنس البهائم شر جنس (٧٠)

وكل انسان مخير فى فعل الخير وله فضله ومخير فى فعل الشر وعليه تبعته ، يضمن المعرى هذا المعنى أحد أبياته الذى يقول فيه :

وتخل أفعال الشرور جناتها وتفوز بالخيرات مصطنعاتها (٧١)

واذا كان الأمر كما بينه شاعرنا : فلزوم الخير حزم وترك الشر حكمة .

**مقابلة الشر بمثله :**

للمعرى فى هذا الموقف رأيان ، أولهما : يأمر بوجوب مقابلة الشر بمثله اقامة للعدل ، فيقول :

ادفع الشر اذا جاء بشر وتواضع انما أنت بشر (٧٢)

فالشر يجب أن يدفع بالشر لا غير ، ويحذر أصحاب القلب الطيب من مقابلة بالخير حتى ولو كان هو موضع هذه المقابلة ، وهنا يخالف الشاعر نص القرآن الكريم حين دعا المسلمين بالاقتداء بالنبى — صلى الله عليه وسلم — الذى ينفذ أمر الله له :

---

(٧٠) الجيل هنا : الجنس من الخلق والمراد به البهائم ، والقنس الأصل ، اللزوميات ٢/٥٥ .
(٧١) المرجع السابق ١/٢١١ .
(٧٢) المرجع السابق ١/٦٠٧ .

« ادفع بالتى هى أحسن السيئة .. » (٧٣) .

يقول المعرى :

ولا تك جازيا بالخير شرا وان أناخنت فى سبب فخنى (٧٤)

فهو لا يود أن يفعل الشر الا مقابل مثله ، وهو يجرى ما يراه عدلا على نفسه قبل أن يجربه على سواه .

أما ثانيهما : فانه يدعو فيه الى عدم مقابلة السوء بمثله حيث يقول :

واغفر لعبدك ما يجنيه من زلل ولا تأتى بسوء من تأياكا (٧٥)

## الحق والباطل

معنى الحق:فى اللغة ألفاظ واضحة مبهمة — واضحة الدلالة على معنى من المعانى ، ولكن تحديد ذلك المعنى — على وضوحه — يكاد يكون متعذرا ، ولفظة « حق » من هذه الألفاظ ، فالناطق بها لا يخطىء وجه استعمالها ، والسامع لها لا تلتبس عليه مع سواها ، لكننا اذا سألنا قائل أو السامع أن يحدد مدلولها اضطرب فكره ، وتردد لسانه ولايلبث بعدما يظن أنه قد وفق الى ما يريده أن يكتشف فى تحديده وجوها من النقص والاخلال فيشفع تحديده بجملة استدراكات واستثناءات . وقد يخطر للمحقق أن يعود الى المعاجم يستنطقها ولكن سرعان ما يجد أنها لا تفى بالمراد ففى محيط المحيط ولسان العرب والقاموس المحيط

---

(٧٣) آية ٩٦ من سورة المؤمنون .

(٧٤) اللزوميات ٢/٥٦٤ .

(٧٥) المرجع السابق ٢/٢٣٥ .

وغيرها معان متفرقة متباينة للفظة « حق » منها : « الحق : ضد الباطل والأمر المقضى والعدل والمال والملك والموجود الثابت والصدق والموت والحزم » (٧٦) •

أما الحق الذى عالجه الشعراء فليس هو «الوجود المناقض للعدم» ولا هو مطابقة الشيء لمثاله بل هو أقرب الى معنى العدل والصدق ومطابقة الأمر للواقع •

**الحق مر المذاق**

ان عوامل الاجتماع وتعارض مصالح الأحياء :قود حتما الى الكثير من التملق والتزييف • بل ان الرغبة فى كسب المنافع وأمثالها كثيرا ما تدعو الى لباس الحق العارى أثوابا منمقة تختطف رقة وصفاقة باختلاف المناسبة والمصلحة • بل ان ظهور الحق عاريا كثيرا ما يكون شديد الوقع على النفس يستثنى من ذلك محب الحق لأن الحق المؤلم عنده أخف من الباطل السار • يقول أبو العلاء المعرى :

اذا ما قيل حق فى أناس  فأوجههم له متر بدات (٧٧)

فالناس تربد وجوههم للحق لأنه لا يوافق أهواءهم فهم يؤثرونه منمقا مزيفا فى أكثر أوقاتهم • ويشير المعرى الى مواقف الناس من الحق فيقول :

الحق يثقل كل غاو ظالم  وأخو الديانة لا يحس بثقله (٧٨)

---

(٧٦) راجع لسان العرب ٢/٩٣٩ ـ ٩٤٥ ط دار المعارف ، القاموس المحيط ٣ / باب القاف فصل الحاء ط الحلبى سنة ١٩٥٢ •

(٧٧) مترابدات : متغيرات ، اللزوميات ١/٢٠١ •

(٧٨) المرجع السابق ٢/٣٥١ •

فأهل الضلال والظلم والغواية هم الذين يحسون بثقل الحق ، وأما المنصفون المتدينون فانهم لا يرون فى سماع الحق كلفا أو حرجا ، والذى حدد لهم ذلك الموقف انما هو الدين الذى يعد درعا واقية من الانزلاق الى هاوية الفسوق والضلال ويشيرا أبو العلاء الى أن الزور المضحك أشد على النفس من الحق المبكى لما فى الكذب والبهتان من غرور وتمادى فى الباطل ، كما أن الحق المر ينبه الغافل فلا يتمادى فى الشر ، بل يعود الى الحق ويخرص أفواه المداحين المداهنين .

يقول :

ان الذى بالمقال الزور يضحكنى ضد الذى بيقين الحق يبكينى
وهل أسر نفسى غير زاكية بأن تخرص أفواه تزكينى (٧٩)

فهو — هنا — يؤثر أن يجابهه الناس بالحق ، وان كان مرا مؤلما على أن يتملقوه بالباطل وان كان ذلك يبهجه ويسره ، وعلى ذلك يمكن القول بوجوب لزوم الحق وتأييده مهما كلفنا ذلك من عناء ، لأن مرارة الحق تعقبها الحلاوة حتى وان التبس الحق بالبطل فان الحق سينجلى ويظهر ويأتى على الباطل فيزهقه وصدق الله العظيم : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق .. » (٨٠) .

## العـــدل والظلم

العدل فى لسان العرب : « ما قـام فى النفس على أنه مستقيم ، وهو ضد الجور ... » (٨١) هذا التحديد يجعل من العدل معنى واضحا هو ما أجمعت النفوس على أنه مستقيم وقد عده « مسكويه » فيلسوف

---

(٧٩) اللزوميات ٢/٥٦٠ .
(٨٠) بعض الآية رقم ١٨ من سورة الأنبياء .
(٨١) لسان العرب م (٤) مادة عدل .

الأخلاق العربى — من الفضائل ذوات الأوساط فقال : أما العدالة فهى وسط بين الظلم والانظلام ، أما الظلم فهو التوصل الى كثرة المقتنيات من حيث لا ينبغى . وأما الانظلام فهو الأستحذاء والاستعانة فى المقتنيات لمن لا ينبغى كما لا ينبغى » (٨٢) وقد ترن شعراء العرب العدل بالدين آناوبا بالفضيلة انا آخر ، فالمعرى يرى فى بعض خطواته الشعرية أن الدين هو الانصاف فيقول :

الدين انصافك الأقوام كلهم  وأى دين لأبى الحق ان وجبا (٨٣)؟

فالدين هو انصاف الناس ومن جار فلا دين له ، ولو تلبس بالتقى وتظاهر بالنزاهة ولا يمارى أحد فى أن العدل صفة حميدة نادره ، الا أن أبا العلاء يؤكد نظرته السيئة الى الناس فيقول :

الظلم أكثر ما يعيش به الفتى  وأقل شىء عنده الانصاف (٨٤)

ومع أن أبا العلاء ضعيف الأمل فى اصلاح الانسان الا انه لا يتوانى فى دعوته الى الفضيلة والحث على لزومها فيقول :

اذا ملكت فأسجح غير مقتضم  وان حكمت على قول فلا تمل (٨٥)

فهو يدعو الى تحرى العدل ، ويوصى الى جانب ذلك بالرحمة وهو غاية ما يمكن أن يبلغه انسان فى الفضائل .

---

(٨٢) تهذيب الأخلاق ص ٢٨ ، الاستحذاء والاستعانة : بمعنى الاعطاء والتسليم ، والمراد هنا : قبول الظلم والنزول على ارادة الظالم .

(٨٣) اللزوميات ١١٨/١ .

(٨٤) المرجع السابق ١٥٨/٢ .

(٨٥) المرجع السابق ٣٢٩/٢ ، أسجح : أسهل ، الميل : الجور .

## معنى الظلم :

ظلم فى القاموس « وضع الشىء فى غير موضعه » وظلم فلانا جار عليه وفلانا نقصه حقه » (٨٦) ومن معانى الظلم : وضع الشىء فى غير موضعه ، وانتقاص الحق • وشرعا عبارة عن التحول عن الحق الى الباطل وهو الجور ، وقيل هو التصرف فى ملك الغير ومجاوزة حد الشارع ، المعنى الذى نستخرجه من غربلة هذه العبارات : أنه التجاوز على حقوق الآخرين • وهو فى رأى « مسكوية » : صفة جامعة لأنواع الرذائل » (٨٧) •

## معدن الظلم :

والظلم كما مر بنا فى تعريفه غير مختلف فى مدلوله أو معناه انما انما الخلاف فى نوع صلته بالنفس ، فان البعض يذهب الى أنه فيها طبع وفطرة ، أو أنه على الأقل صفة راسخة ونزعة راسية ، ففى لزوميات المعرى — مثلا — شواهد كثيرة يظهر منها اعتقاده بأن الظلم خلق راسخ فى البشر منها قوله :

غاك حواء راعو الأسد مخدرة ولم ينادوا بسلم ربه الوجر

ومن أتاهم بظلم فهو عندهم كجالب التمر معترا الى هجر (٨٨)

ففى تقديره : أن من أدى الى الناس الظلم فقد رد اليهم بضاعتهم •

---

(٨٦) لسان العرب م ٤/٢٧٥٦ وما بعدها •

(٨٧) تهذيب الأخلاق ص ١٧ •

(٨٨) اللزوميات ١/٥٤٢ ، ربة الوجر : الوحوش ، جالب التمر الى هجر : مثل يضرب لمن أتى القوم بما مصدره عندهم •

وقوله أيضا :

الظلم فى الطبع فالجارات مرهقة والعرف يسنر والميزان منجوس

والطرف يضرب والأنعام مأكله والعير حامل ثقل وهو منخوس(٨٩)

فالمعرى بعد أن يقرر أن الظلم طبع فى الناس يورد الشواهد على أعمال الظلم فاذا هى ارهاق الجارات ، وجحود الفضل وبخس الحق وضرب الخيل وذبح الماشية واثقال الدواب وارهاقها بالنخس .

ومن لا يرى أن الظلم طبع فى الخلق وفطرة فى جبلتهم فانه لا يمارى فى أنه واسع الانتشار بين الناس على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم ، وحق للمعرى أن يقول :

عرب « وعجم » دائلون وكلنا فى الظلم أهل تشابه وجناس

فلقيت من زيد وعمر مثلما لاقيت من ذئك ومن أتناس (٩٠)

فالعرب والعجم فى الطبع سواء « فى الظلم » ، وهو لا يقصد أن يحصر الظلم فى هذين القومين ، انما يقصد جميع الناس ، فالناس فى اعتقاده شر المخلوقات وأظلمها ، كما أشار الى ذلك فى قوله :

قد فاضت الدنيا بأدناسها على برايا وأجناسها

وذل حر فوقها ظالم وما بها أظلم من ناسها (٩١)

---

(٨٩) المرجع ٢/٢٦ .

(٩٠) اللزوميات ٢/٦٢ ، دائلون : منقلبون من حالة الى حالة ، أتناس : أحد قواد المعتصم العباس وهو من المماليك الأتراك .

(٩١) المرجع السابق ٢/٦٣ .

ولما كان المعرى يرمى الانسان بالظلم استنكر منه أن يطلب العدل ، فقال :

وكيف يطلب عدلا من غريزته تولد والظلم تثميرا وتذريعا (٩٢)

على أن المعرى وان أغلظ فى اتهام المرء بالظلم الا أنه لا يرى أن الله مسئول عن ذلك فهو يصف الله تعالى بالعدل المطلق ، ويجعل الظلم فى طبع الانسان فيقول :

رأيت مزايا الناس فيها تظالم ولا ريب فى عدل الذى خلق الظلما(٩٣)

فهو يجعل الظلم فى الانسان بقدر من الله ، وينزه الله تعالى عن الظلم ويصف بالعدل المطلق .

**الزجر عن الظلم :**

لم يختلف العرب فى تحبيذ ما سموه عدلا ، وتقبيح ما دعوه ظلما ، وعلى ذلك فالظلم عندهم قبيح مرذول ولذلك مقتل : وزجروا عنه ، وأبو العلاء حمل على عاتقه الدعوة الى الزجر عن ظلم الناس فقال :

ولا تناموا عن الدنيا وغرتها فان أبيتم فكونوا خير نوام

لا تظلموا من بنيها واحدا أبدا حتى تعدوا ذوى فطر كصوام(٩٤)

---

(٩٢) اللزوميات ٢/١٣٥ .

(٩٣) المرجع السابق ٢/٤١٨ .

(٩٤) اللزوميات ٢/٤٥٩ .

وقال أيضا :

رأتك البرايا ظالمـــا يا ابن آدم وبئس الفتى من جار عند اقتداره
ونالت أذاة عنـــه جارا ونائيا وأمن منه ضيغم فى خـــدره (٩٥)

فالواضح أن المعرى شديد الكره للظلم كثير الحث على مجانبتـــه ورذله بل انه كثيرا ما يحذر من عواقب الظلم الوضيحة ويعبر عن ذلك باشارات الى أن دعاء المظلوم مستجاب ، فيقول :

واحذر دعاء ظليم فى نعـــامته فرب دعوة داع تخرق الحجبا (٩٦)

ويقول أيضا :

ودنياك ليست للسرور معـــدة فمن ناله من أهلهـــا فهو ســـارقه
فخف دعوة المظلوم ان دعـــاءة ملم بنورى الحجاب وخارقه (٩٧)

فدعاء المظلوم يخرق الحجب السماوية ويصل الى الله ، وله بهذا المعنى أيضـــا :

خف دعوة المظلوم فهى سريعة طلعت فجاءت بالعذاب النازل (٩٨)

فدعوة المظلوم لا تلبث أن تصـــعد الى الله ــ جل وعلا ــ حتى

---

(٩٥) المرجع السابق ١/٥٢٨ .
(٩٦) المرجع السابق ١/١١٩ .
(٩٧) المرجع السابق ٢/١٨٠ .
(٩٨) المرجع السابق ٢/٣٥٢ .

يهبط العذاب على الظالم ، وربما رأى أن دعوة المظلوم أسرع الطلبات الى مسامع المولى سبحانه يعبر المعرى عن ذلك كله فيقول :

انصف مولانا وكل امرىء يظلم والظلم من اللوم

لا شيء فى الجو وآفاقه أصعد من دعوة مظلوم (٩٩)

هذه نماذج من شعر أبى العلاء فى الأخلاق كشفنا بها عن مكانة الأخلاق فى حياته ودوره فى الدعوة اليها ، وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

**اعداد الدكتور / عبد الجواد أحمد محمد**
المدرس بقسم الأدب والنقد بالكلية

---

(٩٩) المرجع السابق ٢/٤٧٤ .